القاضي البَدْويّ في شرقيّ الاردن

لحضرة الخوري بولس سلمان

بحثنا في مقالتنا الاخيرة عن الشعر البدوي الحالي وآنسنا من ارتياح القراء اليها وكمال رضاهم عنها ما استنهض همتنا على مضاعفة الجهد في مرضاتهم واستئناف العمل في تسطير تلك النثرات الغريبة في بابها التي قلما دوّن فيها حملة الاقلام بحثاً وافياً وقولاً شافياً. وقد احببنا اليوم ان نحدث مطالعي الشرق الكرام عن القاضي البدوي او الحاكم الاعرابي في شرقي الاردن

ولم نرضَ بنقل ما طالما سمعناهُ عن الحكّام وذكاء قلوبهم حتى رحلنا بنفسنا الى مضارب الاعراب ونزلنا تحت خيامهم وحضرنا مجالسهم وتعهّدنا قاضيهم ورأينا مجرى الدعوى وفحصنا عن عوائدهم وطبائعهم. وكان الحاكم في اثناء ذلك يُملي علينا قانون البادية ونظام الفقر ويقرّب الينا إدراك القوانين البدوية والشرائع النقليّة السماعيّة بأمثال عديدة ونوادر فريدة. وقبل ان نطوي البيداء للبحث عن اخلاقهم كنّا نخال انهم اقوام مستقلّون بانفسهم لا يذعنون لسلطان ولا يخضعون لنظام شأنَ الامم المتوحشة البعيدة عن مراقي النجاح والعمران. فما توغّلنا في قبائلهم وحللنا في ربوعهم حيناً من الدهر قصيراً حتى عاينّا هنالك شيخاً مهيباً وزيناً تنقاد اليه العشائر باجمعها وتطأطئ لهُ نواحيها اكراماً واجلالاً ألا وهو القاضي العظيم الساند على القبائل بنفوذ كلامهِ وصائب آرائهِ المنقاد عنان الحكم في كبير الامور وصغيرها تُرفَع اليه الدعاوي من اطراف عشيرتهِ فيحسم الشقاق ويظهر الحق من الباطل. ولو بادت تلك السلطة الحيّة من بيوت الشعر لاصبح القفر دار حرب متواصلة تتصادم فيه القوى المتنوّعة فيأكل القويُّ الضعيفَ وتفنى الافراد بين ذاك التيار الماحل. ولا يخفى على المطالع اللبيب ان البدوي سيّئ الاخلاق فجُّ الطباع صعب المراس متكبّر النفس لا يهدأ لهُ هادئ ولا يقرُّ لهُ قرار حتى يأخذ ثأرهُ. واذا جرت بينهم مجادلة ونطق احدهم بكلام غليظ جافٍ عمد الشتوم الى اسلحتهِ واشهرها ولولا صوتُ الحاكم وخوفهم من عقابهِ لجرت الدماء وبادت النفوس على حدّ السيوف

ومما يجب التنبيه اليه ان أنظمة البوادي تقليدية غير مسطرة يتناقلها الخلف عن السلف ولا يغيّرون منها مادّة فهي وديعة ثمينة ورثوها عن اباهم فيكرمونها اكراماً عظيماً ولا يميلون عنها يمنةً او يسرةً. على ان عوائد الاعراب اخذت تتبدّل كل يوم شيئاً فشيئاً لدخول الدولة العلية بينهم. وقد آثرنا ان نبيّن الأحكام البدويّة قبل ان تُمحى من حوافظ الشيوخ وتصبح نسياً منسيّاً

ولا ريب ان بحثاً في القضاء العربي تلذّ مطالعتهُ لاسباب وافرة غير التي اوردناها فان محبّي الكتاب الكريم يجدون بين الاعراب وشعب الله الاسرائيلي مشابهة غريبة تعينهم على ادراك ما اشكل عليهم من الآيات المقدسة ومن وصف حالة الاعراب في دهرنا الحاضر تمثل ما كان عليهِ العبرانيون في الصحراء مدّة اربعين سنة حينما كانوا كالقبائل الظاعنة يتنقلون في برّية سيناء من ربوع الى ربوع طلباً لمراعيهم

*

وقد بيّنا في مقالتنا هذه على ذكر معنى كلمة القاضي عند العرب وصفاته وما تحتاج اليهِ الدعوى من الشهود والكفلاء. ودوّنّا اسماء القضاة المشهورين وسطّرنا شيئاً من قضائهم الماضي والحاضر فنقول:

١ ما هو القاضي البدوي

ان قضاة العرب يمتازون عن القضاة الذين اقامهم الله ليخلّصوا بني اسرائيل من اعدائهم ولو كان الكتاب المقدس يسميهم قضاة او قد سمّت اي حكّاماً فهم قوّاد حرب اختارهم الرب لأيّام محدودة ولغاية معروفة وهي انقاذ الاسرائيليين من ايدي الامم المجاورة لهم. ولم تُرفع اليهم دعوى للقضاء فيها غير ان دَبُورة النبيّة وحدها خُصّت بالقضاء دون غيرها. فاننا نتلو في سفر القضاة (٤: ٥—٦): «وكانت دبورة تجلس تحت نخلة دبورة بين الرامة وبيت ايل في جبل افرائيم وكان بنو اسرائيل يصعدون اليها لتقضي لهم». واما قضاة العرب فانهم يقودون الغزوات ويحملون الحملات على الاعادي الّا ان ذلك في سبيل العَرَض فهم حكّام نُصبوا للحقّ في البوادي

القاضي كما حدده القانون الروماني هو شخص عمومي تقيمهُ السلطة الشرعية لاظهار الحق: Judex est persona publica ab auctoritate legitima ad jus dicendum constituta « وفي الشرع هو الذات الذي نُصب وعيّن من قبل السلطان لفصل وحسم الدعوى والمخاصمة الواقعة بين الناس وفقاً لاحكامها الشرعية المحمدية (انظر مجلة الاحكام مادة ١٧٨٤ فصل في القاضي وصناعته) . فلا نعني في بحثنا هذا عن القاضي الديني لان العرب لا يلتجئون اليهِ الّا في الامور الدينية واما قاضي العرب فهو اسير من امرائهم يُعرَف بتوقد ذهنهِ وسرعة خاطرهِ وجودة نقدهِ وسداد حكمهِ تُسلطهُ القبيلة او العشيرة على افرادها لاظهار الحق من الباطل طبقاً للتقليدات البدوية والعوائد القديمة النقلية

على ان الاعراب لا يرضون بقاضٍ واحد كبير يترأس عليهم بل يركنون القضاء في الامور الصغيرة الى وجوه العشيرة وكهولها فيأتون اليهم ويعرضون دعواهم فيحكمون بينهم بحسب عوائدهم الجارية . فهؤلاء هم رجال الامن والسلام فلا ينالون كالقضاة الحقيقيين راتباً لقضائهم وانما يمارسون ذلك كما يقولون لوجه الله الكريم . والمتخاصمون يلبثون احراراً في الخضوع لحكمهم او رفضهِ ورفع الدعوى الى القاضي الاكبر

ودونكم النادرة الآتية تبيّن محلّ كبار العشيرة في مضارب الاعراب : في الخامس عشر من شهر شباط الماضي ذهب قوم من السيحيين ليدفنوا الشيخ عوّاد وهو كبير من كبار الكرك فأوروهُ التراب وعادوا راجعين الى بيوتهم وما كادوا يبتعدون عن المقابر حتى سُمع صوت عظيم واذا بالذين رافقوا الجثة الى المدفن يتشاجرون ويتلاطمون وحدث اذ ذاك صراخ أليم (١ وقد جُرح في تلك المعركة رجلان من أسرتين مختلفتين وانتشر البغض بينهما الى ان عمّ البلاء وكاد الدم يسيل ويُفني الاهلين والاقرباء فسعى الوجوه في مصالحتهم ورجعت الامور الى مجاريها

١) توجد في بلاد السلط عادةٌ حسنة وهي ان جيران الميت المدفون يدعون اقارب المدفون لتناول الطعام عندهم وتدعى وليمة المآتيص . غير ان كثيرين يتشاجرون لان كل واحد منهم يريد اخذهم الى بيته اولاً . وهذا ما حدث في الحكاية المذكورة

فالقضاة بهذا المعنى هم الكهنة وشيوخ الاسلام وكبراء الأسر وعظماء العشيرة وامراء المدينة المعروفون ووجوه الاعراب وقد عهدت الشيخ عودة بن عيسى وهو شيخ قرية ماعين قد اصلح بين عرب العوازم في امور كثيرة واطاعوه فيما امر . وكذلك الشيخ يعقوب الشريجات في قرية مادبا وأسرة الجوابرة في السلط . وهؤلاء هم القضاة الصغار لو صح ان ندعوهم بهذا الاسم . والدولة العلية اخذت من عهد قريب ترسل بعضاً من حكامها كالمتصرف او القائم مقام ليصلح بين العشائر كما فعلت في شهر ايار الماضي اذ ارسلت متصرف الكرك فهم بك لتصالح عرب بني صخر وتضع السلام بين شيوخهم

ولو رمنا المقابلة بين الاعراب الحاليين والاسرائيليين لوجدنا وجهاً للمشابهة فاذا تتلو في سفر الخروج (١٨ : ١٣—٢٧) ما نصه وهو ينطبق حق المطابقة على حالة الاعراب في ايامنا الحاضرة :

« ولما كان الغد جلس موسى ليقضي للشعب فوقف الشعب امامه من الغداة الى العشي فلما رأى حمو موسى جميع ما يصنع للشعب قال : ما هذا الذي انت تصنعه للشعب ما بالك جالساً وحدك وجميع الشعب واقفون امامك من الغداة الى العشي . فقال موسى لحميه : ان الشعب يأتوني ليلتمسوا امر الله اذا كانت لهم دعوى يأتوني فاقضي بين الرجل وصاحبه واعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال لموسى حموه : ليس ما تصنعه بحسن فانك تكل انت وهذا الشعب لان هذا الامر فوق طاقتك لا تستطيع ان تتولاه وحدك . والان اسمع مني فأشير عليك فيكون الله معك كن انت من قبل الله ترفع دعاويهم اليه وانت فانظر من جميع الشعب اناساً اقوياء اتقياء قوم مستقيمين يكرهون الطمع وولِّ منهم عليهم رؤساء مئات بين الف ومئة وخمسين وعشرة فيكون انهم يقضون للشعب في كل وقت ويرفعون اليك كل امر عظيم وكل امر صغير يحكمون فيهم وخفف عن نفسك وهم يحملون معك . فسمع موسى من حميه وصنع كما قال له فكانوا يقضون للشعب في كل وقت وكل دعوى صعبة يرفعونها الى موسى وكل دعوى يسيرة يحكمون هم فيها »

فقد يوجد في كل عشيرة شيخ كبير ترفع اليه الدعاوي الكبرى وشيوخ احط منه قدراً ومنزلة فهم وجوه العرب يحكمون في الدعاوي اليسيرة . فان عرب بني حسن القاطنين في شمالي نهر الزرقاء وجنوبيه لهم قاضٍ كبير يسمى عواد بن قلاب وهو قاضي البلقاء ولهم قضاة عديدون يحكمون في الامور الصغيرة فهؤلاء الحكام هم

حسين العلي الابراهيم من الخوالدة وحمدان الزيودي ودغمي السمير وعمد العيطان الحرحشي وكايد اخو رشيدة من الرشيدات. فيقولون في كلامهم الجاري: «الشيخ فلان قاضي الحق على القبيلة الفلانية». ويقولون: «فلان قعد للحق عند القاضي الفلاني» اي رفع دعواه الى القاضي

غير ان القاضي الكبير يبث الحكم بعد وفاة سلفه ولا يتسلط على الاعراب الا اذا نال رضى الجميع بسديد رأيه ومعرفته للحقوق البدوية. وللقاضي سلطة واسعة تفوق سلطة الحكام في الممالك المتمدنة والربوع العامرة فاذا تكلم انقطع الحديث وباد الاعتراض وصمت المتخاصمون وهو يكون عادة شيخ العشيرة فتجتمع فيه وظيفتان مختلفتان فهو شيخ الاعراب وقاضيها. فان فرّاز الفايز هو شيخ بني صخر وقاضيها وكذلك سالم النمات ورذيفان المجالي وابن حديد وعواد بن قلاب. وربما افترقت الوظيفتان فنال احدهم الوظيفة دون الاخرى فان شيخ العوازم هو ابو ستة ابو وندي وقاضيهم هو عبد المهدي. ومن غريب ما يحدث ان الامير الكبير يقف امام القاضي كما يقف الخصم الصغير ويرفعان دعواهما اليه وربما حكم القاضي على الامير المجرم. فان عبد المهدي قد حكم على ابي ستة امير عرب العوازم

ومن عوائد العرب ان الولد يتولى القضاء بطريقة الارث لانهم متولعون بحفظ النسب الكريم والاصل الاثيل فاذا وجدوا فيه الكفاءة الضرورية نصبوه حاكماً عليهم وتأيدوه السلطة الراسمة. فلو سألنا عوّاد بن قلاب عن اصله اجاب ان اباه كان كريم المحتد اثيل المنبت فارساً شجاعاً تهابهُ البيداء كلها ونال ابنهُ منصب القضاء بعد وفاة ابيه لتوقد ذهنه وذكاء. فزاده ساداً عرب العمر قضاة الدهر الغابر في جنوبي الكرك: اين عزكم القديم ومجدكم الماضي فيقولون قول الشاعر العربي:

هي الامور كما شاهدتها دُوَلٌ من سرَّهُ زمن ساءتهُ ازمانُ
وهذه الدار لا تبقي على احدٍ ولا يدوم على حال لها شانُ

غاب الزيادي الذي كان آيةً في الذكاء والفطنة. غاب كطائر لم يترك من بعده اثراً وكثيراً ما نجد قضاةً نالوا القضاء بكدهم وسعيهم ومجالستهم للقضاة المشهورين فاصبحوا بعد الزمن القليل كالحكام تتوارد اليهم الاعراب من كل اطراف البادية. وكنت احدث يوماً بعض شيوخ العرب عن هذه الامور فقال: «البعض يدرّجون

من مهدهم الى المناصب العالية دون تعب والبعض ينهضون بسامي عزائمهم الى ارقى المراتب

٢ صفات القاضي الاعرابي

لا بدَّ له ان يكون متانِب الفؤاد مستقيماً في قضائه عارفاً بتقليدات البداة صبوراً على هفوات الخصوم مهيباً في النطق والكلام والحكم

فقد طالما مدح الشعراء ذكاء العرب وروى الرواة عنهم اموراً مستغربة يكاد العقل يبذها وكنا حين نتلوها مسطَّرة او نسمعها منقولة نظنها ضرباً من المغالاة او نكاد نتصورها من المخترعات لولا صدق المسطرين ووفرة الرواة الى ان رأينا قضاة العرب الحاليين وايقنا ان العرب من اسمى الشعوب فهماً وادراكاً. ولو قدَّر لهم المولى ان يتلقنوا العلوم في المكاتب الرفيعة والمدارس العالية لباتوا درجة سامية من المعارف والفنون وغدوا من افاضل العلماء. ومن دعاوي ذكائهم تنحيهم عن رفاهية التمدن الفاسد وانفرادهم بالبادية وصافي سمائها وشمسها. فالقاضي عندهم سريع الفهم والادراك ولقد سمعتُ قاضي العواذم عبد المهدي يرد الادلَّة الساطعة لاقناع احد المتخاصمين وحمله على المصالحة بما دلَّ على صفاء عقله وتوقُّد ذهنه فكان يقول لاحدهم: « تبني كلامك على رمل زاحف وسيل جارف ». وكنت احدِّث نفسي حين اسمعهُ اني لم ارَ ارجح منهُ فؤاداً ولا اسرع تناولاً فقد يباري فهمهُ سمعهُ ويفهم من التلميح قبل التصريح

ودونكم قضاء ابن نسير عجزت عنهُ علماء الشام وقضاتها وفقهاؤها:

يُروى ان رجلاً من اغنياء دمشق طلَّق امرأته في سورة الغضب وكانت قد ابتاعت بريال سريرًا دون ان تستأذنهُ في ذلك فاقسم انها طالقة ان لم ترد الريال عينهُ فصعب الامر في عينيها لانَّ التاجر البائع يملك في خزانته عدداً وافراً من هذه النقود. ولمَّا افاق الرجل من سكرة الحنق والغيظ وراجع عقلهُ وحاسبهُ تدم اشدَّ الندامة على فعلهِ هذا فقضى حيناً طويلاً يبكي ويتلهف على امرأته. اخيرًا طلب لحلِّ هذا المشكل فتوى من علماء الشام فما استطاع احد ان يحلَّ عقدهُ ويرد عليهِ جواباً سديداً بل كانوا يردِّدون عليهِ هذه الكلمات الوانة: « هو الشرع لا ينقض انها طالقة انها طالقة »

فسمع ابن سمير وهو في الشام بما جرى فقال للمفتي: « جعلت فداك يا سيدي هل الرجل مُغرم بامرأته قال: كيف لا وقد اصبح ضامر الجسم شاحب الوجه أليف الحزن والكمد فلا تصفو له حياة بدونها ولا يحلو له عيش بعد فراقها. فلما سمع ذلك امر باحضاره وألّا مثل بين يديه واذا هو مكروب النفس مضطرب البال وما كاد يكلّمهُ حتى اظهرت الدموع سرّهُ واخذ يحدث القاضيَ البدويَّ عن الطافها وما تركت في فؤاده من الغمّ والشجن فقال القاضي ابن سمير للمفتي: أحضروا صندوق التاجر كلهُ فلا ريب ان الريال يكون بين الدراهم. فاستهزأوا الامر ورجعت المرأة الى بعلها فانذهل قضاة الشام من نجابته وحسن حلهِ لذلك المشكل الذي لم يجدوا لهُ مخرجاً.

وللقضاة حوادث غريبة تفصح بجلي البيان عن توقّد ذهنهم سنذكرها في محلها

وكم من مرة حُرم الابن القضاء بعد وفاة ابيهِ لبلادة عقلهِ وسوء ادراكهِ على ان ذلك يندر جدًّا بين الاعراب لما يصيب صاحبه من الذلّ والهوان ولهذا لا يفتر الاب عن نصيحة ابنهِ وارشادهِ الى ما يؤول لصالحهِ فتراهُ دائمًا يذكّرهُ بالابطال الشجعان والفرسان المشهورين. وكثيرًا ما يورد لهُ قول الشاعر العربي:

بقدر الكدّ تُكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي

روى لي سالم ابو الغانم الشيخ القاضي المشهور بين عرب الغنيات ان اباهُ كان يصف لهُ سعيَ النحل لجمع الزهور واصطناع العسل ويمثل لهُ روايات عديدة عن ذكاء النحل وكيف يدّخر لايام الشتاء مؤونتهُ. ويصوّر لهُ امثالًا عن الحيوانات والنباتات كي يدفعهُ للسعي وراء الحكمة والفطنة فاصبح ولدهُ بعد نصائح ابيهِ المؤثرة اميرًا من امراء البيداء وقاضيًا مشهورًا يُرجع اليهِ في الرأي والمشورة

وقد ذكر لي الشيخ عبد المهدي ان القضاة مدرسةٌ ابتدائية يتلقون فيها مبادئ القضاء والحكم فهو مضرب الاعراب ولاسيما مجلس ابيهم وقاضيهم فالمرشّح لهذه المرتبة الرفيعة يقضي ايامهُ في خيمة القاضي الكبير وتراه وهو في الثامنة من عمره يلعب مع الاولاد الداب العرب (١) واذا جلس الوجوه والعظماء في خيمة القاضي ترك تلك الملاهي واتكأ بالقرب من الامير صامتًا بخشوع واحترام يسمع القضاء بانتباه

(١) الداب العرب هي الدرو والقنب والخاتم والطاقة وغيرها وسنذكرها في غير هذه المقالة

من بدء الدعوى الى آخرها وعيناه الصغيرتان تنتقلان من واحد الى آخر فطوراً يرمق الى الشيخ ومهابته. وطوراً يلتفت ويمين حركات المتخاصمين فهذا عواد بن قلاب قاضي البلقاء كلما كان في صباه وربيع أيامه مشغولاً بالالعاب الصبيانية فلا يدع كلباً الّا ويصاحبهُ ولا العوبةً من ألاعيب الفتيان الّا ويمرّن نفسه عليها على انهُ كان يتركها ويتجنب كل هذه الاباطيل عند مرافعة الدعوى فقد اتقن النظام البدوي وغدا ماهراً في ضروب القضاء.

واذا تهيأ الحاكم للقضاء لا بد لهُ ان يبدو بمظاهر العدل والاستقامة في جميع مناهجه. ومن عادات القضاة انهم لا يقبلون هديّة من احد المتخاصمين قبل رفع الدعوى ولا يتناولون الطعام في الولائم لئلّا يميل قلبهم الى الباطل وعندهم مثل يقول: «أطعم المرء تقوده بخشومه» (تقدهُ بخيشومهِ) اي تجرّه الى حيثما تشاء. اتى بدوي يدعى سلامة الى الشيخ فواز قاضي بني صخر وقال: تلطف ايها الامير واقبل مني هذه الفرس الكريمة. فقال القاضي بصوت مرتفع ووجه غضوب: حسبُك لقد ادركتُ ما تريد. ثم بعد ايام رُفعت الى القاضي دعوى في حادثة دم وكان مقدم الفرس من المجرمين فحكم القاضي عليه وعلى اعوانه ومن جملة ما اورد من الادلّة لاقناع الجمهور الحاضر قولهُ: «ايها الرجال الكرام لو كان سلامة صاحب الحق لما احتاج الى استخدام الوسائط السافلة فالحق نور ساطع لا تخفيه الهدايا ولا جزيل الشرايا» وعنى بذلك عن المال والطعام اللذين لا يجديان صاحبهما نفعاً في القضاء. ولقد صدق ابن قلاب حين قال: «أحكمُ على اخي ولو كان من لحمي ودمي». ولهم عادة حميدة تذكر بالثناء عليهم وهي ان قاضي العشيرة اذا رُفعت اليهِ دعوى باحد اقاربه الادنين او بمن تقرنهُ بهِ روابط المودّة والاخاء لا يحكم فيها بل يسطرها الى قاضٍ غيره من القضاة المجاورين ارباب العدل والانصاف اتلا تقع الظنون عليهِ. وكان يحدثني بذلك عبد المهدي فقال: «لو اضطررتُ الى الحكم على اخي او ولدي أحكم والحزن في فؤادي ولكني لا اتأخر عن ذلك لانّا معاشر الحكام نؤاب عن العشيرة وكيف نحابي الوجوه وعينُ الله ساهرة لا تغفل عنا تراقبنا وتتعقب حركاتنا وسكناتنا»

ومما يبعدهم عن سبل الرشوة ما لهم من الراتب المعدود لكل دعوى يحكمون

فيها. وهذا الراتب يسمى عندهم رزقة كما سنبينهُ في محلهِ. ولسنا نعمُّ القول بان القضاة جميعهم يأنفون الرشوة والهدايا ولا يطأطئون هامتهم للذلّ والهوان فمنهم من سار على مثال غيرهِ من الحكّام الذين يجارونهم وفقاً لما قال الشاعر:

واذا الامور تعسّرتْ فجزتَ عن ادراكها
فامدُدْ يديك وأمطهم دينارك مفتاحها

فاذا نالوا نصيباً من الهبات والهدايا حرّفوا القانون عن معانيه القديمة واتوا بشرح مُبهم طبقاً لاهوائهم ورغائبهم فلا تراقبهم عين المراقبين ولا تعارضهم يد المعارضين لأن الجهل سائد بين الاعراب

وكنا فيما سبق بيّنّا انَّ القانون تقليدي فلا بد للقاضي اذن ان يعرف عوائد العرب وطبائعهم وقضاء الشيوخ من قبلهِ. وعليه ان يطابق الحوادث الجارية والدعاوي المرفوعة طبقاً للاحكام التي رسمتها لهُ القضاة. ولقد حضرتُ في مجلس عبد المهدي قضاء يدلُّ على تمأُّق العرب بما ورثوه عن ابائهم من العوائد الحميدة والقبيحة ودونكم مجراه: كان كبار العرب جالسين في المضرب فتقدَّم المدّعي وجلس في وسط الجماعة وقال: «يا سيدي القاضي ان فلانًا وفلانًا وفلانًا قد اعطوا ارضاً واسمة لسالم الحلّاقين (وهو بدوي) والارض لا تخصُّهم بل هي ملك العشيرة كلها ولا يقدر احد ان يتصرَّف بما لا يخصُّهُ بل بما تملك يداه دون غيرهِ وان شاء الله بحكمك العادل تعيد الارض الى اصحابها». ثم جلس في محلهِ بين الجماعة فقام المدّعى عليهِ وهو سالم الحلّاقين وجلس في وسط الجماعة وقال: «يا سيدي القاضي يا عبد المهدي ويش تقول (اي ما رأيك) في انسان وهب هبة من نفس طيبة راضية وطاب بعد ذلك استرجاعها والمر. الكريم لا يسترجع ما وهب واني لأعدُّهم من كبار قومهم اذا اعطوا شيئاً تعطي العشيرة ما وهبوا». وكان عبد المهدي الى يميني فانحنى اليَّ وقال: كيف رأيك في هذه المسألة. فقلت: على ما اظن ان الذين وهبوا الارض قد وهبوا ما يخصُّهم فقط لان المثل يقول: يجود الخيّرون بمالهم وهزلا. جادوا بمال غيرهم فقال: هذا رأي صائب لو كنا في بلاد الناس اي في البلاد الراقية المتمدنة ولكن حسب عوائد العرب ان وجوه القوم اذا جادوا بما يخصّ العشيرة كلها فان العشيرة لا تردّهم خائبين بل انها تسلّطهم على كل ما تملك. فان الذين وهبوا هذه الارض لسالم الحلاقين هم من كبار

العشيرة فقد وهبوها اذن باسم العشيرة كلها ولا يسعنا ان نغير عوائد القضاة الذين قبلنا ثم التفت الى الحاضرين وقال: « انا من عندي ومن عند القضاة الذين قبلي ومن عند الرجال الذين مثلكم ان الوجوه الذين وهبوا قطعة الارض قد وهبوها باسم العشيرة كلها وهي الآن ملكهُ يتصرف بها كيفما يشاء ». وتمَّ القضاء على هذا المنوال. ومن هذا يُستدَلّ ان القضاء في البادية نقلي سماعي

وكثيراً ما يحدث بعد الحكم اعتراضات ومجادلات غير ان القاضي يلبث بين تلك الاضطرابات ساكن الجأش هادئ البال وربما ادَّت بهم حدَّة الغيظ الى شطط الكلام ولكن لا ينتهي جدالهم الى الشتم والاهانة لانهم يكرمون بيت القاضي ويعدُّونهُ مقدَّساً. وقد يطول الجدال بينهم والقاضي يتحمَّل جهلهم بصبر عجيب فلا تخرج من فمهِ كلمة تشمئزّ منها الاذان وتنفر منها القلوب

وياحبذا ما سمعناه من لطف كلامهم وحسن منطقهم في المجالس فقد يخال انهم من سحرة الالباب ولقد تبدو فصاحتهم ويظهر واسع معانيهم بعد ان يكون كل من الخصمين عرض دعواه وأيدها بالبراهين والادلَّة فينتصب القاضي ويسرد دعواهما فيصحح كلامهما ويزيد فيهِ ما يقوي الحجة ويحذف ما لا فائدة منهُ فيكون كلامهُ حينئذٍ اسطع من النور وامتن من الصخر. فهذا ما يسمَّى في كلامهم « تعديل الحجة » من عدَّل الحكم اي اقامهُ. هناك تظهر مخيلتهُ فيأتي بالتشابيه البديعة ويضرب الامثال ويورد الحكايات على السنة الحيوانات او الجمادات مما يطرب لهُ الحاضرون. قال احد الاعراب عن قاضٍ اعرابي وهو ابن قلاب: « لهُ كلام اسلى من الشهد المصفى »

٣ كيف يصير القضاء عند العرب

وكم من مرة تقع الخصومات بين العرب على ما يملكونهُ من الحيوانات والاراضي فيهيج هائجهم وينبض نابضهم فتستفزهم نزوة الغضب فينتفضون ويرتجفون من الغيظ والحنق فينتضون السيوف ويطلقون الرصاص وتُهراق الدماء الكريمة لما طبعوا عليهِ من حدَّة الاخلاق وحفظ الحقد والضغينة. والسرقة عندهم من الفضائل الرفيعة والكذب جارٍ بينهم مجرى العادة فيضربون بهِ المثل قائلين: « الكذب ملح الرجال وعيب على من يصدق ». وكثيراً ما تسرق من مضاربهم فرس كريمة فيقتفون اثرها

الى ان يجدوها فيرفعون دعواهم الى القاضي لمعاقبة الجاني او يتخاصمون زماناً طويلاً على قطعة ارض وترتفع اصواتهم وشتائمهم ولا يجدون حلاً لمشكلاتهم الاَّ حكم القاضي

ولهم طريقتان لحسم الخلاف القائم بينهم فاما انهم يلتجئون الى القَسَم واما انهم يطلبون قضاء الحاكم البدوي. فالقسم او الحلف لمن ارهب الامور واقدسها فلا يقدمون عليهِ الاَّ مضطرين فان الاعرابي لسذاجة عقلهِ وتسلُّط الجهل عليهِ تملك قلبهُ الخيالات المخيفة والتصوُّرات المرعبة ولذلك يتجنبون الحلف ولو كانوا بهِ صادقين. ولقد رأيت من الاعراب عدداً وافراً يهابون اتخاذ الولي الكريم او احد اوليائهِ وانبيائهِ شاهداً على صحة ما يقولون وهم يُعدُّون من قطَّاع الطرق وسالبي المسافرين. وقد وقعت في البادية عند عرب الزايدة حادثةُ دم فطلب اقارب المائت حقَّهم من الدية اي ثمن الدم فابى القاتل ان يدَّ يد المساعدة لأسرة المتوفى وانكر انهُ ذبحهُ. فطلبوا القَسَم على مزار النبي شُعَيب (١ قائلين: اذا اقسمتَ هناك برئتْ ذمتك من دم الرجل والاَّ فانا نترك لك قرًى ولا مسكناً ولا غنماً الاَّ نهبناه. فقال: هلمُّوا معي الى مزار النبي شعيب. وهذا المقام واقع في وادي شعيب على بعد ثلاث ساعات من نهر الاردن من جهة الشرق فركب خلق كثير وفرسان عديدون ليعاينوا معاقبة النبي للمجرم ولما افضوا الى بركة النبي شعيب واذا بالجاني قد اخذتهُ رهبة المزار فاصطكَّت رجلاه وسكنت حركاتهُ واخذ العرق البارد يسيل من اعضائهِ كلها ولم يزل الى البركة ليقسم القسم الطلوب فدلَّت هيئتهُ وما صار اليهِ من الوجل على جرمهِ واثمهِ فقال العرب الحاضرون بعضهم لبعض: لما رأيتم قدرة النبي شعيب وسلطتهُ البيِّنة وجئوا هناك وتلوا عن ظاهر قلوبهم صلاةً وجيزة ثم عادوا الى بيوتهم والرهبة ممثلة على وجوههم. على ان البدو ان قد اخذوا من عهد قريب تمثلاً بين يجاورهم من الفلاحين يشهدون الشهادة الزورية فيطلبون الرشوة القليلة ويبيعون دينهم بدنياهم وقد تعهَّدنا بأنظارنا على ابواب المحاكم في المدن الكبرى او في بعض الاقضية اناساً ساقهم الطمع وحبُّ المال الى الشهادة الكاذبة فيشهدون بما لم يروا ولم يسمعوا

والقَسَم عند العرب انواع مختلفة منهُ ما يسمونهُ القسم الجاري والصغير ومنهُ

(١ يزعم العرب ان شعيباً هو يثرو حمو موسى النبي وهم يكرمونهُ كنبي ايضاً

القسم الكبير نفي القسم الصغير يقوم الشيخ ويقف في وسط الخيمة ويقول: « اقسم عليك بالله وبصلاة محمد هل فعلت الامر الفلاني. فيقول: والله وصلاة محمد لم افعل ما تقول ». ولهم نوع آخر من الحلف يسمى حلف اليد. كنا يوماً في بيت من بيوت الشط فذبحوا الذبيحة ووضعوها في صحن كبير يدعى مسفاً في منتصف البيت فقام وجوه العشيرة وتناولوا نصيبهم من الطعام وبعد ان انتهوا الوليمة جلسوا يتجاذبون اطراف الحديث. وفيما هم يتكلمون بصوت مرتفع اذ ساد السكوت وانتصب رجل وضع يده على رأس رجل اعرابي وقال: « اناشدك بالله يا تحوش وتنوش (١ بجلابات الحليب (٢ ونسافات العسيب (٣ وبالنساء وما تجيب داخل عليك على المال والعيال من الحلال والاستحلال (٤ اليوم بين عينيك وباكر بين متنيك (٥ بغبيتة علي وبيتة عليك (٦ ان اطاعتها تسرك وان خيتها تضرك أما صار كذا وكذا؟ فيجيب: « إي بالله ورسوله صار كذا وكذا. او: لا بالله ما صار ذلك ».

ويقولون ايضاً في اقسامهم: « انا حاضر بحضارك وبموقد نارك أما صار كذا وكذا ». ومن حلفهم ما يسمى حلف العشبة: « بحق هذه العشبة الاوية والكاذب ما الله ذرية » (٧. ولهم قسم يدعى ببيت الشعر اي الخيمة: « وحق البيت وبيت الله وطعمه وزاده عند الله اما يرى كذا (٨ ».

ولهم قسم عظيم يسمى قسم النملة والشملة ودونكم وصفه: حينما يكون العرب

---

١) اي اناشدك الله بما تملك في هذه الدنيا فاذا صدقت في جوابك يبقى لك مالك واذا كذبت يؤخذ جميعه

٢) جلابات الحليب هي السماح والنياق والمعزى وغيرها من الحيوانات

٣) نسافات العسيب هي الخيل الكريمة. العسيب هو ذنب الفرس

٤) اي اني ارجوك بحق أسرتك واولادك ان لا تتكلم بالمش والمذمة

٥) انك تراني اليوم وغدا ستحاسبني على المش واقف امام الديان العادل وانت تقف ايضاً وتظهر امام الملي اذا اخفيت الحق سيرى الناس ذلك في يوم الحشر والنشر

٦) اي الشيء المكتوم والشيء الجلي

٧) ان العرب تأخذ عشبة من اعشاب الارض ويقسمون القسم المذكور

٨) يحلفون ببيت الله وبيت الشعر الذي يعتبر عند العرب مكرماً ومقدساً. ويقولون ان كل ما يقدم للضيوف هو مطهر عند الله

وكبارهم منتشين في شقّ الرجال (وهو محل الرجال في الخيمة) وطال الجدال بين فريقين على ارض او فرس وغيرهما يقوم امير البيت ويخرج بحجلهِ خارج الخيمة ثم ينتضي سيفاً باتراً ويخطُّ بهِ دائرةً كبيرة ويضع في وسط الدائرة حبّة حنطة ونملة. والحنطة تدلُّ عند العرب على اكرم ما خلق الله تعالى والنملة تمثل الحكمة والفطنة والادراك. ويمدُّون السيف في منتصف الدائرة فيدخل المتهم في وسطها ويضع يدهُ على نصاب السيف ويقسم قائلاً: « والله العظيم والسيف الكريم ما فعلتُ الشر ولا سرقتُ ولا قتلت الخ ». وقبل ان يدخل في وسط الدائرة ينزعون عنهُ كل اسلحتهِ وكثيراً ما يرجف رعدةً وهيبةً وربما رجع عن الحلف واقرَّ بما فعل. وحضرنا قسم السلة والنملة في مضارب الاعراب فمنهم من يضع عمامة بيضاء في مكان الحنطة تدلُّ على حكمة سليمان بن داود كما يقولون. واذا دخل المتهم في الدائرة يتغير لون وجههِ وترتجي مفاصلهُ وتميد يداه ورجلاه وتشخص عيناه من الرعب والذعر

ومن عوائدهم ما يماثل عوائد اهل الاجيال الوسطى. ويدعى عندهم بَلْعاً وهو من بَلَعَ الشيءَ اي نزل الشيءُ في حلقومهِ الى جوفهِ

وهو من انواع الامتحانات المتعة عند الفرنج « ordalies » وذلك ان المجرم يبتلع الحديد المحتدم فان كان بريئاً لا ينالهُ شيءٌ من الالم والوجع وان كان مجرماً تعذب بالعذابات التي لا تطاق ولا تحتمل. ومنهم من يشربهِ السمّ القاتل ومنهم من ينزل في المياه المتلاة على النيران ليظهر نقاوتهُ ويزكي نفسه

والحلف بالمقامات يُعدّ عندهم من الاقسام العظمى وربما اقسم البدوي بالله مراراً عديدة وابى ان يقسم بالاولياء والمزارات المكرَّسة. ومن مزارات شرقي الاردن مزار النبي شعيب وهوشع والشيخ عبدالله والشيخ خُنَيْزير ومزار ابي عبيدة وام العيون وسنذكر موقعها واحاديثها في مقالة اخرى نبحث بها عن ديانة العرب ومزاراتهم وخرافاتهم وطالما سمعنا من الاعراب ان الذين اقسموا قسماً كاذباً اصابهم ضربات هائلة تقشعرُّ لذكرها الابدان فمنهم من جمدت دماؤه ومنهم من خسر مالهُ وأولاده ومنهم من لم يبقَ لهُ اثر بعد الاثم ومنهم من خرج يستهزئ بالاولياء والمقامات فلم ينلْ شيئاً ولم تنزل بهِ النكبات

غير ان العرب يدّعون القسم لرهبتهِ ويلتجئون غالب الاحيان الى القاضي البدوي.

فما اجمل بيت الشعر حينما يُزيَّن بانواع الاثاث ويفرش بابدع الفرش ويُعلق على اسواره السلاح اللامع كالسيوف والبنادق. فما يكاد يجلس الوجوه حتى يُسمع صوت المهباج (١ يدق القهوة ولله قول ابي الكبابر:

البنّ بالميوان نسمع ضيله عزّام لوجوه المسابير زانات

والعرب مولعون بشرب القهوة المُرَّة ومن عوائدهم الطواف على الحضور بالقهوة دفعات متوالية وهم لا يسكبون في الفنجان الّا ما يكفي ثلاث جُرَع. وبعد شربهم للقهوة يقوم احد المتخاصمين ويجلس في وسط الخيمة بين الحاضرين ويلتفت الى القاضي ويقول وهو عندهم بمثابة استدعاء. ويفتتحون به الدعوى: «ويش بك يا قاضينا يا الي بحقك ترضينا جنتك هدي ومشيا قدي وافلح على من صلّى على النبي (والكل يقولون الصلاة والسلام عليه) حظّي وحظّك يدخلان على اربعة واربعين نبي من القرط والنوط والحق الردي وانا داخل على المال والعيال من شيْ مبيّن عليك وعليّ غبي وانا حاطها بعيرتك السود وربعك القعود وبالامرأة وما تجيب وحلّابات الحليب ونسّافات العيب». وقد تركنا كلامهم على نطقه ولم نُرد ان نبدل منهُ حرفاً ليقف القراء الكرام على الفاظهم ولغتهم المتعمة في البادية. وهذا كلامهم في مقام التعظيم والتفخيم يأتون بهِ مسجّعاً ويذكر المدّعي ما جرى لهُ بصوت جهور بحيث يسمعهُ الحضور من كل اطراف الخيمة ويورد البراهين في ذلك الى ان ينتهي ويعود الى مقامه الاول. فيقوم المدّعى عليهِ ويجلس في وسط المجلس ويكرر القول نفسهُ: «ويش بك يا قاضينا الخ» ويفصح عن ادلّته ولا يحاول معارضته في شيْ. والقاضي بين كل ذلك صامت لا يبدي كلمة وفي آخر كل ذلك يقول: «افاهموا واصلحوا خير لكم» اي اصلحوا ذات البين خير لكم. واذا ابوا الّا اظهار الحق يقول لهم: قدموا الرزقة

(له تابع)

(١ المهباج هو نوع من الهاون الخشبي من شجر البطم الاسود ويزينونهُ بالمسابير الفضية او الذهبية والمهباج كلما كان كبيراً دلّ على كرم الشيخ